خصائص الحوار النبوي

مع

أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها

(دراسة في الصورة والسياق)

إعـداد

د. حزام بن سعد الغامدي

أستاذ مشارك بجامعة الباحة

المقدمة:

ا لحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين. وبعد:

فإن البيان النبوي قد جاء على لسان أفصح البشر وأبين ا لخلق عليه الصلاة والسلام، فلم ينطق إلا عنٍ ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قدْ حُفَّ بالعصمة وسدِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه ا لمحبة، وغشاه بالقبول، وجُمع له بين المهابة وا لحلاوة، وبين حُسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أ جمل مذهباً، ولا أ كرم مطلباً، ولا أ حسن وقعاً، ولا أ سهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم[1].

وهذا ا لجمال الفني في بلاغته صلى الله عليه وسلم، إنما يرجع إلى سموّه الروحي واتصاله بالملأ الأعلى، حيث أراد ا لحق سبحانه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته نقطة تحوّل في حياة البشرية وتاريخها، ولقد بدأ في أُمَّة تنقاد للبيان، وتخضع لسلطان الفصاحة، فلا عجب إن كان أبلغهم وأفصحهم، فهو كلام كلما زدته فكراً زادك معنى[2].

ومع مكانة هذا البيان النبوي، وما له من شرف ومنزلة؛ لم يحظ بما يستحقه من العناية في النا حية البلاغية رغم شرفه ومنزلته ومكانته في دنيا الناس.

ولما كان للحوار أثره في أداء رسالة ا لحق وإيصال ا لخير، فقد اعتمد النبي صلى الله عليه وسلم على ا لحوار أداة من أدوات الإبانة والإيضاح.

وقد كان لحواره صلى الله عليه وسلم عظيم الأثر في إصلاح بيت النبوّة، والارتقاء به في ميادين البذل والتضحية، فهو يصوّر حال الداعية مع المدعو، واتصال الزوج مع زوجته، وقد كان حوار النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها نموذجاً مصغّراً لنبوَّته صلى الله عليه وسلم، سواء في حال رضاه أم في حال غضبه، وسواءً في حال أمنه أم خوفه، وكذلك في حال قوته أو ضعفه.

وقد كانت عائشة رضي الله عنها أحب نساء النبي صلى الله عليه وسلم إليه، جاء في حديث ابن عمرو رضي الله عنه، حين سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه فكان جوابه صلى الله عليه وسلم: ((عائشة، قال: ثم ماذا؟ قال أبوها...)) الحديث[٣]. وجاء في صحيح البخاري قوله صلى الله عليه وسلم: ((فوالله ما منكن امرأة ينزل علي الوحي في ثوبها إلا عائشة))[٤].

وعن عبد الله بن زياد الأسدي قال سمعت عماراً يقول عن عائشة: هي زوجته في الدنيا والآخرة[٥]. تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بكراً ولم يتزوج غيرها بكراً، وقبض صلى الله عليه وسلم في حجرها، ودفن في بيتها.

يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: ما أشكل أمر علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً[٦].

وقد عنونت لهذه الدراسة بـ" خصائص الحوار النبوي مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها دراسة في الصورة والسياق "، ولست أعني بالصورة هنا ما يذهب إليه بعض المحدثين من إرادة مفهوم الصورة البيانية، وإنما أعني بالصورة هيئة الكلام وطريقة ضم بعضه إلى بعض، وهو ما يطلق عليه مصطلح "الأسلوب"، وذلك أن سبيل الكلام هو سبيل التصويروالصياغة، وسبيل المعنى الذي تدل عليه هيئة الكلام؛ سبيل الذي يقع التصوير والصوغ فيه، فالأسلوب هو الذي يتشكل فيه المعنى، وتقع فيه المفاضلة في المزية بين تركيب وآخر.(٧)

وستحاول هذه الدراسة الإجابة عن عدة تساؤلات، من أبرزها: كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يراعي حال عائشة في حواره معها وفق ما يقتضيه الحال؟ وهل كان يخصّها عليه الصلاة والسلام بكلمات معينة لمزيد حبه لها؟ وهل حُظيت زوجاته الأخرى بمثل هذا النصيب من الحوار؟ وما هي سمات المعجم اللفظي في حواره صلى الله عليه وسلم لعائشة؟ وهل كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدِّث عائشة رضي الله عنها عن قضايا الأُمَّة أو كان حواره لها مقتصراً على بيت

النبوة و شئون المنزل؟ و كيف تلقَّى المعصوم عليه الصلاة والسلام حديث الإف ك الذي يمثل أعظم البلاء وأشد أسباب التأثير في علاقته مع عائشة رضي الله عنها؟ وهل كان النبي صلى الله عليه وسلم يُطلع عائشة رضي الله عنها على سرّه؟ وهل كان يُظهر لها فرحه وحزنه؟ وما أبرز سمات النظم النبوي في حواره صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين؟

وستحاول هذه الدراسة الإجابة عن تلك الأسئلة، والوقوف عند الأساليب البلاغية، وطرق البيان والتأثير على الآخرين، والإفادة منه في التربية، وتغيير السلوك إلى الأفضل والأحسن، سائلاً الله التوفيق والسّداد وبالله التوفيق.

ولما كان الحوار النبوي يتشكّل في سياقات عّدة،ومقامات مختلفة؛ فقد خصصت هذه الدراسة لكل سياق مباحث على حِدة وجاءت الدراسة على النحو الآتي :

- المقدمة بين يديك .
- المبحث الأول : سياق البشارة .
- المبحث الثاني : سياق المداعبة والمرح .
- المبحث الثالث : سياق الغيرة .
- المبحث الرابع : سياق الإرشاد .
- الخاتمة .

المبحث الأول : سياق البشارة:

جاءت السنة النبوية بالأمر بالبشارة ولذا قال صلى الله عليه وسلم ((بشِّرا ولا تنفِّرا)) الحديث[٧]. وذلك لما في البشارة من إدخال السرور على الآخرين، وقد كافأ كعب بن مالك من بشّره بتوبة الله عليه، بأن نزع قميصه وألقاه عليه[٨]، والقصص والأحاديث المروية في هذا السياق يطول ذكرها، وإنما أردت الإشارة إلى أن زف البشرى إلى الآخرين من مقاصد هذه الشريعة، وقد زخرت به السنة النبوية، لما فيه من إدخال السرور على الآخر، وهو ما ظهر جلياً في حوار النبي صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

البشارة الأولى :

جاء عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يا عائشة أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، قال الذي عند رأسي للذي عند رجلي أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي ما وَجَعَ الرجل قال مطبوب قال: مَن طبّه – أي من سحره – ؟ قال لبيد بن الأعصم؟ قال: في أي شيء؟ قال في مشط ومشاطة، قال: وجب طلعة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان)) قالت فأتاها النبي صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه، ثم قال: ((والله يا عائشة لكأنَّ ماءَها نُقاعة الحناء، ولكأنَّ نخيلها رؤوس الشياطين، قالت: فقلت يا رسول الله أفلا أحرقته؟ قال: لا، أمَّا أنا فقد عافاني الله وكرهت أن أثير على الناس شرّاً، فأمرت بها فدفنت))[٩].

فقد نادى النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها والنداء في التصنيف البلاغي أسلوب إنشائي يمارس فاعليته في الاستنصات واستحضار ذهن المخاطب[١٠]، وفي مناداتها باسمها ((يا عائشة)) من الحفاوة بها والتحبّب إليها ما يقوّي جسر الزوجية، ويشدُّ بنيان الأسرة، ويبقي روضة الود والحب، بخلاف ما هو واقع في بعض مجتمعاتنا من إخفاء اسم الزوجة وعدم التّصريح به واعتباره داخلاً في

ثقافة العيب وا ستثقال مناداة الزوج زو جته با سمها أو بكنيتها، أو تدليلها بأ حبّ ألقابها وأ سمائها.

ولو جاءت البشارة بحذف النداء هكذا ((أ شعرت أن الله أفتاني)) لما كان فيها من معاني ا لحُبِّ ما نلاحظه في ا ستهلال حواره بهذا النداء ا لحاني من القلب الر حيم.

وقد ا ستهل البشارة بالا ستفهام المشوِّق إلى معرفة المضمون، و جاء السؤال مجملاً يحتاج إلى تفسير، كما في قوله ((أنَّ الله قد أفتاني فيما ا ستفتيته)) مبهم، قد فَسَّرَه ووضَّحه ما جاء بعده، فهذا فنٌّ من فنون البلاغة وأ سلوب من أ ساليب الإبانة، حيث جاء الكلام في معر ضين، فتتشوَّف النفس وتتحفز لمتابعة الا ستماع[١١]، ويكسب الكلام طلاوة و حلاوة، وأبّهة وفخا مة[١٢]، والمعنى إذا أُلقي على سبيل الإ جمال والإبهام تشوفت النفس إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فإذا ألقي كذل ك تمكَّن فيها فضل تمكن، و كان شعورها به أتم؛ لتمكن اللذة بالعلم به.

والإبهام يقع في رواية مسلم وفي البخاري على حدٍّ سواء، ونلاحظ تنا سب ا لجرس الموسيقي بين كلامتي (أفتاني وا ستفتيته) و مع دلالته الضمنية على الدعاء والتضرع والإ لحاح؛ فنتج عنه إ جابة وفرج و شفاء، وزمن الفعلين هو الزمن الما ضي، و كأن الدعاء والإ جابة قد تزا منتا في وقت وا حد، إنها سرعة في الإ جابة وتعجيل الفرج.

ورواية البخاري تتضمن قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ((فما ذاك يا رسول الله؟: فتكون البشارة قد جاءت بعد تساؤل عائشة رضي الله عنها عن هذا ا لخبر المبهم، وفي هذا مزيد تحاور بين النبي صلى الله عليه و سلم وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

و جاء السؤال الا ستفها مي توطئة للبشارة، مظهراً أهمية ما بعده؛ إذ هو علاج المر ض الذي عانى منه صلى الله عليه و سلم، و حلّا للمشكلة التي عايشها، و تحقيقا للأ منية التي تمناها، وقد جعل ا لخبر الذي ساقه بشارة لعائشة رضي الله عنها على هيئة سؤال و جواب منذ ا ستهله حتى ختمه، وذل ك لما فيه من تنشيط السا مع، و جذب المتلقي.

ومعنى قوله مطبوب أي: مسحور، كني بالطب الذي هو العلاج عن السحر، كما يُكنّى بالسليم عن اللديغ تفاؤلاً بسلامته، والمشاطة: الشعر الذي يسقط من الرأس والماشطة عند التسريح بالمشط، والجبّ: وعاء الطلع، يقال له: جُفّ وجُبّ معاً(١٣).

ولما كان الجُبّ يُطلق على وعاء الطلع الذكر والأنثى، قيّده في الحديث بقوله" طلعة ذكر"(١٤). "وبئر ذي أروان": بئر بالمدينة في بستان بني زريق(١٥).

وقد ساقَ النبي صلى الله عليه وسلم البشارة في عرضِه حوار الرجلين اللذين قعدا عنده وقد تشكّل من السؤال والجواب حتى يكشف عن جميع الأحداث والتفاصيل التي يصل من خلالها صلى الله عليه وسلم إلى شفائه ومعافاته من السحر الذي أصيب به، فالحوار جاء كاشفاً عن اسم الساحر، وطريقة عمله للسحر، ومكانه.

وهكذا ساقَ النبي صلى الله عليه وسلم البشارة لعائشة - رضي الله عنها - وأعلمها بمن سحره، وبموضع السحر، وهذا سرّ قد أفضى به إلى زوجته على خلاف ما كان العرب عليه من عدم إفشاء السر إلى الزوجة، احتقاراً لها، وتخوّفاً من نشرها له، ولعدم الثقة بينهما؛ بينما كان إخبار النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة بسرّه وجهاً من وجوه تكريم المرأة، ومظهراً من مظاهر احترامها، وضرباً من ضروب الحفاوة بها، وإعطائها مكانتها والقدر اللائق بها.

وقد جاء وصف ماء تلك البئر ونخل ذلك البستان في صورتين بيانيتين، وذلك بتشبيه ماء البئر بنقاعة الحناء أي: في احمراره؛ وقد جاءت هذه الصورة مستمدة من الواقع لتقريبها وتوضيحها لحبيبته وعشيرته رضي الله عنها، بينما جاءت صورة تشبيه النخل برؤوس الشياطين مستمدة من صورة خيالية لا تدركها الأبصار، ولا تُشاهد في واقع البشر، أراد بشاعة رؤوس ذلك النخل وقبحه، إذ رؤوس الشياطين تُضرب مثلاً في القبح والتشويه والمنظر المخيف، ومثله قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا الْأَنْبِيَاءَ الْحَقِّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الصافات: ٦٥] وبين الصورتين "في الحديث والآية "عدد من خيوط

التلاقي، فالمشبه به هو ذاته في التشبيهين، و كل منهما قد اعتمد في إبرازا لحقيقة المراد إبرازها على ما ترسّخ في نفوس الناس من صور ا لجن والشياطين، فهي صورة منكرة وبشعة(١٦).

و صورة الشياطين مما ترسخ في النفوس من صور الأشياء ليست حقائقها مرئية في حياة الناس(١٧).

والصورتان تفترقان لوقوعهما في سياقين مختلفين، فقد جاء المشبه في الصورة القرآنية - وهو طلع شجرة الزقوم - خبيثاً وبشعاً على أصله؛ إذ أصلها القبح والبشاعة؛ و جاء المشبه في صورة ا لحديث الشريف، وهو نخل بئر ذروان على خلاف أصله؛ إذ أصل طلع النخل أنه طيِّب، ولكنه لما اختلط به السحر تغيّر عن أصله، وأصبح خبيثاً بشعاً، كما جاءت صورة ا لحديث النبوي أقوى تأ كيداً؛ لأنها خلاف ما يتوقعه الناس من طلع النخل(١٨).

وقد جاءت الصورة التشبيهية في ا لحديث متمثلة في تشبيه النخل الذي يقع عليه ا لحس برؤوس الشياطين التي لا يقع عليها ا لحس؛ ليعطي ا لخيال سعة في الانطلاق، والتحليق في كل ما يخطر به من صور البشاعة وألوان الفظاعة.

وقد جاءت الصورة متوافقة مع السياق؛ لإبراز نخل البستان الذي وضع فيه السحر في أبشع صورة وأقبح مرأى ؛ بسبب ذلك السحر ؛ ولذا جاء سؤال عائشة رضي الله عنها بعد هذه الصورة (أفلا أحرقته)؟ والمراد إحراق السحر لا الساحر .

وعلى رواية (أفلا استخرجته) (١٩)، يكون المراد بإثارة الشر بين الناس، أن استخراج السحر وإشاعته ضرر على المسلمين، من تذكّر السحر وتعلّمه ونحو ذلك، وهو من باب سدّ الذرائع أولى من جلب المنافع .

البشارة الثانية:

يسوق النبي صلى الله عليه وسلم إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشارة أخرى جاءت فيما روته رضي الله عنها،قالت : قال صلى الله

عليه وسلم يوماً: يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام، فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى يا رسول الله[٢٠].

وهذا من أشرف المقامات، وأعظم ما يفتخر به، أن ينقل أفضل البشر إلى عائشة رضي الله عنها سلام أفضل الملائكة، وقد جاء النداء بلفظ ((يا عائش))[٢١]، بالترخيم لما فيه من مزيد التودُّد والتحنّن، المناسب للمخاطب المتوافق مع سياق البشارة، ولما كان هذا السلام من جبريل الذي لا تراه عائشة ولا تسمعه، وهو موضع استغراب – بالرغم من تيقن عائشة رضي الله عنها من وجوده وتصديقها به – فقد جاء الخبر مؤكّداً، وقدّم (جبريل) في الخبر لشرفه وعظم مكانته، ولكونه موضع اهتمام السياق، إذ أن الخبر ليس ببلاغ سلام شخص من عامة القوم وسوادهم، وإنما هو إبلاغ سلام جبريل عليه السلام على جلالة قدره، وعلوّ منزلته عند ربّه.

وحينما تسمع عائشة رضي الله عنها قوله صلى الله عليه وسلم (إن جبريل)، وقبل أن يتم الجملة عليه الصلاة والسلام، فكأنك بها رضي الله عنها وهي تسبح بخيالها قائلة: ماذا عن جبريل؟، إن الحديث عن جبريل، فهل يا ترى سيكون الكلام خبراً عنه؛ وصفاً له، أو نقلاً لكلامه؟ ولكنها لحظة لا تمنح عائشة رضي الله عنها استقصاء احتمالات الخبر، فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يتم حديثه، ويسوق البشارة بقوله ((يقرئك السلام))؛ ولو جاءت الجملة هكذا (يقرئك جبريل السلام يا عائشة)) لذهب ذلك الحسن الذي وصفناه، وجاء الكلام خالياً من تلك الروعة، وذلك المغزى المراد.

وجاء قوله ((يقرئك السلام)) ولم يقل ((يبلغك السلام)) لما في (يقرئك) من زيادة المعنى، يُقال: أقرئ فلاناً السلام، واقرأ عليه السلام، كأنه حين يبلغه السلام يحمله على أن يقرأ السلام ويردّه[٢٢]، فإقراء السلام يكون بلفظه ومعناه، أما التبليغ فللمبلِّغ التصّرف في صيغته.

ولو قال (يبلِّغك السلام) لانتهت دلالة الكلمة بوصول السلام إلى عائشة رضي الله عنها، وإنما جاءت لفظة (الإقراء) لإعطاء مزيدٍ من التواصل بين عائشة وجبريل عليه السلام، ولذا جاء ردَّ عائشة رضيَ الله

عنها في الرواية السابقة (وعليه السلام ور حمة الله وبر كاته) وفي رواية "وعلي ك وعليه السلام ور حمة الله وبر كاته "[٢٣].

و جاء التعبير بـ (يقرئ ك) بالمضارع دون قوله (أقرأك) لما في دلالة المضارع من التجدد والاستمرار، مما لا نجده في دلالة الماضي، كما أنه يدل على أن هذا الإقراء في الزمن الحاضر، وهو إبلاغ لرسالة جبريل في الحال دون توان؛ مما يدل على فرحته صلى الله عليه وسلم بهذا الخبر، وسرعة البشارة به لزوجته، وهذا مما ينبغي للزوج مع زوجته، وللرجل مع امرأته، فالنبي صلى الله عليه وسلم الذي يسرع بنقل البشارة والأخبار السارة لزوجته، قد بقيت زوجته رضي الله عنها في بيته ما بقيت بعد انتشار خبر الإفك، ولم يخبرها ولم يحزّنها بذلك الخبر المؤلم، حتى أخبرتها أم مسطح في قصة الإفك المشهورة، وستأتي معنا بإذن الله تعالى.

والحديث حجة في أن من بلغ إليه سلام غائب عنه، فإنه يرد عليه السلام كما يرد على الحاضر[٢٤].

و كما جاءت بشارة النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها بإبلاغه سلامه لها، فقد بشِّر صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها بسلام جبريل؛ إلا أن جبريل لم يطلب إبلاغ سلامه فحسب، وإنما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يزفُّ له بشارة إقراء الله جل شأنه السلام لخديجة؛ فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال (إن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ((إن خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام أو إدام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربّها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)) [٢٥]. وقد جاء عند النسائي في السنن الكبرى ردّها عليه السلام بقولها: (إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته)[٢٦].

وعند الموازنة بين البشارتين نلاحظ أن بشارة خديجة رضي الله عنها تضمنت ما هو أعظم من بشارة عائشة رضي الله عنها؛ لأن عائشة سلّم عليها جبريل من قبل نفسه، وخديجة أبلغها السلام من ربها

وبشّرها بقصر في الجنة من قصب أي: من لؤلؤ مجوّف لا صخب فيه ولا نصب، وقد جاء ردّ خديجة بقولها (إن الله هو السلام) ولم تقل: على الله السلام دالاً على فقهها رضي الله عنها.

البشارة الثالثة:

يسوق النبي صلى الله عليه وسلم بشارة ثالثة إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقوله: (يا عائشة ألم تري أنَّ مجزِّزاً المدلجي دخل، فرأى أسامة بن زيد وزيداً، وعليهما قطيفة قد غطّيا رؤوسهما، وبدت أقدامهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض) (٢٧).

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتألم أشد الألم، حين يَغْمز من يَغْمز في أسامة وأنه ليس ابناً لزيد، لسواد أسامة وبياض أبيه، فإذا بمجزّز المدلجي يصبُّ حديثه برداً وثلجاً على صدر النبي صلى الله عليه وسلم، حينما حكم بما يقتضيه علم القيافة الذي كان له اعتباره عند العرب؛ بأن أقدام أسامة من أقدام زيد، دون أن يرى وجهيهما؛ مما زاد النبي صلى الله عليه وسلم سروراً وسعادة، فأسامة رضي الله عنه هو حِبُّ النبي صلى الله عليه وسلم وابن حِبِّه، وإصابة الرجل في حِبِّه فاجعة ورزيّة، فجاء حكم مُجزِّز بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم، ولعلمه صلى الله عليه وسلم بحُبِّ عائشة رضي الله عنها لما يُحبُّ وفرحها بما يفرح؛ على خلاف حال بعض الزوجات فقد ساق لها البشارة، وبثَّ لها مشاعر فرحه وسروره، لتشاركه الفرحة، وتشاطره السرور.

وقد استهل الخبر بمناداتها باسمها ((يا عائشة))، كما هو حاله في سياقات البشارة والأخبار السارة، ولم يأت الاسم بالترخيم كما في البشارة الأولى؛ لما في هذه البشارة من حقيقة علمية أثبتها أحد علماء القيافة وخبرائها، فجاء النداء على أصل الاسم متسقا مع بيان الحقيقة العلمية، بخلاف البشارة الأولى التي جاءت بشارة خالصة مختصة بذات عائشة رضي الله عنها، تستدعي مزيدا من الفرح والمرح يستجلب زيادة التحبب والتودد المتمثل في الترخيم.

واستهل الخبر بأسلوب الإنشاء، الباعث على تَحفّز الذهن وإقباله، فقال: ((ألم تري أن مُجزِّزاً المدلجي...))، فجاء الاستفهام

تقريرياً، يصبو به إلى تقرير الخبر، وبثّ البشارة، وقال ((مجزِّزاً المدلجي)) ولم يقل (القائف)، فهل كان ذلك لشهرة مُجزّز في القيافة، فأصبح اسمه كافياً؛ لاحترافه وتميزه في القيافة، أو أنَّ اشتهار قبيلته (بني مدلج) بالقيافة جعل ذِكْر كل منتسب لها دالاً على هذا العلم الذي أصبح جزءاً من شخصية كل مدلجي؛ أو أنّ مُجززاً معروف عند عائشة بعلم القيافة، والسياق يحمّل ذلك كلّه، والله أعلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم ((فرأى أسامة بن زيد وزيداً)) ولم يقل: ((فرأى والده)) وإنما صرح باسمه، وذلك إما لكثرة ما شاع من تشكيك في نسبه حتى أصبح الناس يقولون أسامة بن زيد باعتبار الأصل، ويقولون زيداً، لكثرة ما أُثير من الشك في نسبه، وقد يكون تصريح النبي صلى الله عليه وسلم باسم زيد؛ لأن اسمه هو المشهور في الحديث عنه؛ إذ بعض الناس يشتهر بكنيته، وبعضهم بلقبه، وبعضهم باسمه، وجاءت فاء التعقيب رابطة بين الفعلين "دخل فرأى" دالة على سرعة تنبّه مجزز لتشابه أقدام أسامة مع أبيه، دون التمعن والتفرس، وأخذ زمن من التروّي في ذلك، وهذا دالّ على وضوح التشابه وظهوره أول وهلة لأصحاب القيافة.

وبدأ بذكر (مجزِّز) ولم يقل (دخل عليّ مُجزّز) زيادة في التوكيد، وتثبيت المعنى؛ إذا الجملة الاسمية أقوى تأكيداً من الجملة الفعلية، ولذا عدّ علماء البلاغة الجملة الاسمية من مؤكّدات الخبر، أضف إلى ذلك أن اهتمام السياق منصبّ على القائف الذي صدع بهذه البشارة، ولذا حَسُن تقديمه على الفعل "دخل" الذي لا تتحقق فيه تلك المزية.

وينقل النبي صلى الله عليه وسلم حُكْم مجزّز القائف مؤكّداً بقوله: "إن هذه الأقدام بعضها من بعض"، فجاء في أسلوب طلبي قد اختاره القائف؛ لإعطاء الحكم مزيدا من القوة والثقة، وقد قدّم صلى الله عليه وسلم لهذا الحكم بتوطئة تدل على صدق فراسته، وصحة حكمه، فهذا أسامة وأبوه قد غطّيا رؤوسهما، وبدت أقدامهما، وهل فُعل بهما ليطلب من القائف الحكم على تلك الأقدام، أو أنّ الحدث قد جاء هكذا دون إعداد؟ هذا هو الذي يظهر هنا من دلالة ألفاظ السياق، بل إن

قوله: ((قد غطّيا)) يدل على أنه من فعل أسامة وأبيه، حيث التحفا بالقطيفة ليناما، فجاء القائف، وهما نائمان على هذه الحالة.

وقد كان حكم القائف لأسامة وأبيه على مسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، فسُرَّ بذلك كثيراً، حتى دخل على عائشة رضي الله عنها وأسارير وجهه تبرق، فرحاً وا ستبشاراً بسلامة نسب أسامة، مما دحض كلام من يطلقون ألسنتهم في أعراض الناس بغير علم.

وقد دلت هذه البشارة على تشوق النبي صلى الله عليه وسلم إلى صحة الأنساب وإلحاقها بأصولها، وإنما كان هذا الخبر الذي نقله النبي صلى الله عليه وسلم بشارة سارة، لما فيه من إزالة الريبة، والتشكّك في نسب أسامة رضي الله عنه.

المبحث الثاني: سياق المداعبة والمرح:

كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح ويُحِبُّ المزاح، ولا يقول إلا حقاً، فالنفس إذا تعبت كلَّت وعميت، لذا شُرع المرح المباح الذي يعين النفس على استعادة قواها، واسترداد نشاطها، وموا صلة طريقها في العمل الجاد والمثمر.

السياق الأول :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يداعب أهله ويمازحهم ويمرح معهم ويشاركهم مشاعرهم وأحاسيسهم واهتماماتهم، وقد كان لأحب نسائه إليه النصيب الأوفر والحظ الأكثر ومن ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخل الحبشة المسجد يلعبون، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حميراء أتحبين أن تنظري إليهم؟ فقلت: نعم. فقام بالباب، وجئته فوضعت ذقني على عاتقه، فأسندت وجهي إلى خدّه، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسبك. فقلت: يا رسول الله لا تعجل، فقام لي، ثم قال: حسبك. فقلت: لا تعجل يا رسول الله، قالت: وما لي حبّ النظر إليهم، ولكنني أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي ومكاني منه(٢٨).

لقد اقتطع النبي صلى الله عليه وسلم بالرغم من كثرة أعبائه ومهامه وقتاً لزوجته، لتمرح وتستمتع بلعب أهل الحبشة، ولم تكن رؤية عائشة لهذا اللعب واستمتاعها به إلحاحاً منها – كما هو حال بعض الزوجات اليوم مع تمنُّع الأزواج وتشاغلهم – بالرغم من إباحة ذلك المرح ومشروعيته – وإنما نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يعرض عليها ذلك بقوله: ((يا حميراء أتحبين أن تنظري إليهم)) ولم يأت النداء بـ ((حميراء)) في حديث صحيح سوى هذا الحديث بهذا السياق المَرِح(٢٩).

و صغّر ((حمراء)) ((وهي البيضاء المشربة بحمرة)) وفي تصغيرها تدليل وتحبُّب يناسب مقام الفرح والمرح، واختار ((حميراء)) لما فيه من امتداح جمال عائشة رضي الله عنها، وامتداح الفتاة بالجمال من أعظم ما يدخل السرور على النفس، وإليه تتشوق كل فتاة وتطمح.

وجاء العرض النبوي لعائشة رضي الله عنها بمعجم لفظي رقيق حانٍ، حيث قوله "" حميراء"" وقوله "أتحبين".

ونلاحظ من الحوار أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم صادق في عرضه لعائشة رضي الله عنها، حيث جاءت المبادرة منه صلى الله عليه وسلم حينما قالت: نعم؛ بتمكينها من رؤية أهل الحبشة، والاستماع بلعبهم، وقد قام لها النبي صلى الله عليه وسلم على الباب لتراهم، وزيادة في التدلل والتحبّب، وضعت عائشة رضي الله عنها ذقنها وخدها على عاتقِ النبي صلى الله عليه وسلم، ووجهها على خدّه صلى الله عليه وسلم.

ومتعتها رضي الله عنها بهذه الهيئة ومساعدته صلى الله عليه وسلم لترى الحبش تقديراً لها، قد أنساها لذة الاستمتاع بلعب أهل الحبشة، وهذه هي المشاعر التي تحتاجها كثير من بيوت المسلمين؛ لتستقيم حياتهم، ويِصفو عيشهم، وتتآلف قلوبهم، ويُجبر الصدع، ولا يتسع الخرق؛ ولذا عبَّرت عائشة رضي الله عنها عن فرحها بفعل النبي صلى الله عليه وسلم معها، وكون ذلك أطرب لها من النظر إلى لعب الحبشة؛ فقالت: ((وما لي حبّ النظر إليهم، ولكن أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي ومكانتي منه))، وفي قوله صلى الله عليه وسلم لها ((حسبك)) ما يومئ إلى الاكتفاء باليسير من المرح؛ إذ الحياة الجادّة هي سبيل الرشد وطريق النجاح، ولا بأس مع الجدّ من قليل من المرح المباح.

ولهذا جاء ردَّ عائشة رضي الله عنها في حوارِها مع النبي صلى الله عليه وسلم بقولها ((لا تعجل يا رسول الله)) معبِّراً عن طبيعة المرأة التي تحبُّ الكثير من المرح، والكثير من المشاعر الفياضة بالحب، المتدفقة بالود، المتعطرة بالحنان، المتجملة بالاحترام.

ونلاحظ الفرق بين الجملتين "يا رسول الله لا تعجل" و "لا تعجل يا رسول الله" حيث بدأت الجملة الأولى بالنداء ثم أتبعت بـ "لا تعجل" بينما بدأت الجملة الثانية بـ "لا تعجل" فجاءت مركّزة على الفعل "تَعْجل" لما رأت من تكرار النبي صلى الله عليه وسلم قوله "حسبك" فناسب تقدم النهي عن التعجل، على سبيل التحبّب والتحنّن، إذ إصرار

النبي صلى الله عليه وسلم على الا كتفاء باليسير من مشاهدة لعب ا لحبشة؛ جعل العناية والاهتمام ينصبّان على طلب عدم التعجل دون النداء.

وقد يُستغرب إ صرارها على الا ستمرار، بالرغم من تكرار النبي صلى الله عليه وسلم قوله ((حسب ك)) أي: يكفيك ما شاهدتيه ونظرتي إليه، فهل كانت عائشة رضي الله عنها تنظر تلك اللحظة إلى النبي صلى الله عليه وسلم على أنه سيد الأنبياء الذي له أعظم مكانة في صف البشرية، وأجل منزلة في تاريخ الناس، أو تنظر إليه على أنه زوجها؟.

إن المرأة لا تنظر إلى زوجها باعتبار منصبه وجاهه ومنزلته عند الناس، وإنما تنظر إليه باعتباره زوجها وهي زوجته، وتريد منه ما تريده كل زوجة من زوجها من معاني ا لحب ومشاعر الود، ومن التقدير والا حترام، ما يجبر به ضعفها ورقّتها.

ومن أبرز خصائص التعبير التي تظهر في هذا ا لحديث، تكرار الفاء في جمل ا لحديث الدالة على سرعة تتابع الأحداث والمشاهد التي عبَّرت عنها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مستشعرة تسارعها، و كأنها لحظة خاطفة، وفرصة سانحة، جاءت عجلى، فذهبت وانقضت بمشاعرها المتدفقة وأحاسيسها المرهفة.

كما نرى الباء في قولها رضي الله عنها (بالباب) دالة على التصاق النبي صلى الله عليه وسلم بالباب؛ ليمكّن أم المؤمنين رضي الله عنها من النظر إلى أهل ا لحبشة، وفي قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها "فأسندت وجهي إلى خدّه" دلالة على مزيد تدللها وتحبّبها للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي قولها - أيضا - رضي الله عنها "فقام لي" حينما قال لها حسبك، فأصرّتْ على مزيد مشاهدة"؛ تعبير عن مواصلة النبي صلى الله عليه وسلم القيام بالباب من أجلها، دون أن يكون لقيامه سبب آخر، وفيه دلالة أخرى، وهي أن قيامه صلى الله عليه وسلم كان لها دون أحد سواها لمنزلتها ومكانتها عنده، وجاء قولها، ثم قال: " حسبك" ؛فدخلت "ثم" دالة على طول قيامه لها صلى الله عليه وسلم، معبرّة عن

طول المسافة الزمنية بين" حسبك" في المرة الأولى،و" حسبك" في المرة الثانية.

السياق الثاني :

وجاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: حين رجع النبي صلى الله عليه وسلم من البقيع فوجدني وأنا أجد صُداعاً في رأسي وأنا أقول وارأساه فقال: بل أنا يا عائشة وارأساه، ثم قال: ((ما ضرّك لو مِتِّ قبلي، فقمت عليك فغسلتك وكفنتك وصليت عليك)) (٣٠). في رواية قلت: ((لكأني بك والله لو فعلت ذلك قد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم)) (٣١).

قول عائشة رضي الله عنها ((وارأساه)) أسلوب توجع وهو من أساليب النداء صدر من عائشة رضي الله عنها، معبّرة به عن شدة ألمها، وعظم وجعها، فعبّرت عن ذلك بأسلوب الندبة لما فيه من مدّ؛ تنفث من خلاله آهاتها، وتتنفس معه معاناتها؛ وقد دلّ على شدة صداعها قولها "وأنا أجد صُداعاً" دون قولها "أشعر بصداع"؛ وقد كانت عائشة رضي الله عنها ترقب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يخفّف عنها، ويدعو لها بقوله مثلاً: ((لا بأس طهور إن شاء الله))؛ ظناً منها أنها وحدها من تعاني من ألم الصداع في تلك اللحظة، ولكن الرد النبوي جاء على خلاف المتوقع؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم رداً على قولها ((وارأساه))؛ ((بل أنا يا عائشة وارأساه)) و كأنه صلى الله عليه وسلم يريد أن يقول صداعك عن قريب سيزول، أما أنا فصداعي سيوردني حوض المنايا، فنقل النبي صلى الله عليه وسلم اهتمام عائشة رضي الله عنها من صداعها إلى صداع حبيبها وعشيرها عليه الصلاة والسلام، للفرق بين الألمين؛ وقد جاء رده صلى الله عليه وسلم بحرف الإضراب ((بل) و كأنه يقول لا تقولي وارأساه بل قولي وافراقاه) لحبيب روحي، وعشيق فؤادي.

والتعبير بـ ((بل)) له أثره البالغ على النفس بنقل الذهن إلى خلاف مع يتوقع، مع فجأة الصدمة، وتغير مسار التفكير، وتوقع الذهن، وسرعان ما يعود النبي صلى الله عليه وسلم بالحوار للحديث عن عائشة رضي الله عنها مداعباً لها بقوله: ((ما ضرّك لو مِتِّ قبلي فقمت عليك

فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك)) وهذا من ذكاء النبي صلى الله عليه وسلم وفطنته، ومراعاته لحال زوجته، ولو أنه استمر في الحديث عما أجيب به، وبدلاً من الحديث عن عائشة، واصل حديثه عن مرضه، وأخبرها أنه لن ينفكّ من هذا المرض حتى يُودع الثرى، لكان المقام حزن وهمّ ولوعة، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم استطاع أن يحوِّر الحوار من حديث آلام وأسقام، وعاهات وعلل، وبكاء وشكوى؛ إلى حوار ممازحة ومداعبة، وقد شاركته عائشة رضي الله عنها، حيث قالت: ((لكأني بك والله لو فعلت ذلك قد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك)). وينتهي الحوار بتبسّم النبي صلى الله عليه وسلم،ويمكن أن يُفهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم "بل أنا وارأساه" مشاركة منه لألم زوجه عائشة رضي الله عنها، والتخفيف عنها؛ إذ يجعلها تنشغل بألم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتنسى ألمها، وفي الوقت ذاته يشعرها بمشاركته لها في هذا الألم، وبهذا يخرج قول النبي صلى الله عليه وسلم "بل أنا وارأساه" من الحقيقه إلى المجاز الذي يحمل بين طيّاته المرح والمداعبة .

وهكذا بدأ الحوار بـ((وارأساه) وخُتِم بالتبسم والمرح تعجباً من شدة غيرة عائشة رضي الله عنها حتى بعد موتها، ولو استطعنا أن ننجح في حواراتنا بإظهار اهتمامنا بزوجاتنا لصلحت أحوالنا، ففي قوله صلى الله عليه وسلم ((فقمت عليك فغسلتك وكفنتك)) إظهار لمكانتها منه، وإبراز لقيمتها عنده، فهو من سيقوم عليها ويغسّلها ويكفّنها، ولن يوكِّل أحداً غيره لهذه المهمة؛ لو استطعنا أن ننجح هذا النجاح؛ لساد جو الألفة، ورفرف طير اليمن، وعاشت أسرنا في بحبوحة من الأمن، وارياض من الرّفق والسعد.

السياق الثالث :

جاء عن عائشة رضي الله عنها أنه لما كشفت الريح عن لُعبَها رضي الله عنها، قال صلى الله عليه وسلم ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي، ورأى بينهم فرساً له جناحان من رقاع، فقال صلى الله عليه وسلم: ما هذا الذي أرى وسطهن؟ قالت: فرس، قال: ما هذا الذي عليه؟ قالت:

جناحان. قال: فرس له جناحان؟ قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً له أجنحة. قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه[٣٢].

نلاحظ في هذا الحوار أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتدأ هذا الحوار بالاستفهام: ما هذا يا عائشة؟ كما هي عادته في أغلب حواراته مع عائشة رضي الله عنها.

لقد كان المتوقع من هذا السؤال النبوي لعائشة رضي الله عنها الإنكار عليها في اتخاذ اللعب واللهو بها، وربما لو كان من بعض أزواج اليوم، ورأى ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم لصبّ وابلاً من الزجر والتعنيف، وأرغى وأزبد حتى يخلِّص زوجته مما يراه عاراً وأمراً منكراً لا يليق بها، ولكن الأمر قد جاء على خلاف ذلك، وأصبح الحوار مشاركة وجدانية أشعرت عائشة بالأُنس والانسجام؛ فقد سأل صلى الله عليه وسلم عما لفت انتباهه في لعبها، وجعل حواره لعائشة رضي الله عنها أسئلة استيضاح تنشد الإجابة؛ حيث تتابعت أربعة أساليب استفهامية جاءت لإظهار الاستغراب، وليس للإنكار، مما أثرى الحوار النبوي، وجعله يتوقّد حيوية وإثارة، وجاءت ردود عائشة على قدر ما تحتاجه الأسئلة من إجابة، وقد تتابعت الأسئلة بإجاباتها لتصل بالاستغراب إلى ذروته، نلاحظ ذلك من خلال المقارنة بين ما نجده من استغراب في قوله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا عائشة، لتقول له: بناتي، وبين قوله صلى الله عليه وسلم: فرس له جناحان، وهذا الأخير من الغرابة بمكان، إذ كيف يكون للفرس جناحان؟ وهل الفرس مما يطير حتى يكون له جناحان؟ وانتهى الحوار بابتسامة الرحمة، وضحك الحنان الذي يضفي على الأسرة معاني الرحمة، وظلال الأمن، وأسباب السعادة؛ بينما انتهت حوارات بعض الأزواج مع زوجاتهم بالعبوس وتقطيب الجبين؛ وتقطعت وشائج العلاقة، وتصدَّعت جسور الترابط، واتَّقدت نيران الحقد والبغضاء.

والمتأمل في الحوار السابق يَعِنّ له شيء من شخصية عائشة رضي الله عنها التي تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم صغيرة في التاسعة من

عمرها، وهي الشخصية التي تحب شيئاً من اللهو واللعب، وهذا ممَّا عُرف عن شخصيتها رضي الله عنها.

ونداء النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها باسمها يا عائشة لا يكاد يخلو منه حوار نبوي معها رضي الله عنها، لا سيما في مواطن المرح والمداعبة، إلا أنَّ له خاصية هنا تزيد عما سبق من حوارات، إذ المقام هنا مع فتاة صغيرة لديها لعب الطفولة، ولمناداتها باسمها أثره النفسي على أحاسيسها، وأثره التربوي في إعطاء الصّغار قيمتهم ومكانتهم، وضحكه صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه كان إعجاباً بحسن رد عائشة رضي الله عنها، وهذا يكشف جانباً آخر من شخصية عائشة رضي الله عنها، وهو الذكاء وسرعة البديهة، واستحضارها للدليل رغم صغر سنها.

وقد كان للتعبير بلفظ الجسد الممثِّلة في الابتسامة من شخص النبي صلى الله عليه وسلم أثره البالغ في إبراز مشاعره، واهتمامه بعائشة رضي الله عنها، ولو اقتصر الحوار على السؤال والجواب لربما ظنَّت عائشة رضي الله عنها أن هذا من الإنكار والتقريع لها، ولكن تعبيره بلفظ الجسد، بضحكة حتى بدت نواجذه قد أضفى جوَّاً من الأنس والمسرّة والمرح، ولم ينكر عليها بالرغم من وجود الصور ذوات الأرواح التي جاء تحريمها، فإما أن يكون من التسامح مع الصِّغار، وأن لعبهم ليست كسائر الصور التي جاء الوعيد عليها، وإما لكون القصة قد جاءت قبل التحريم(٣٣).

المبحث الثالث: سياق الغيرة:

كانت عائشة رضي الله عنها كغيرها من النساء تتمتع بجانب من الغيرة، التي هي جبلّة في كل امرأة، فإذا ما كان للرَّجل أكثر من زوجة كان ذلك من أسباب ثوران هذه الغيرة وهيجانها، والمتأمل في غيرة عائشة رضي الله عنها يعجب من شدة غيرتها، ولا أدل على ذلك مما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان عندها رضي الله عنها، فبعثت إحدى نسائه بصحفة فيها طعام، فضربت عائشة رضي الله عنها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: غارت أُمُّكم، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من بيت عائشة، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها وأمسك المكسورة[٣٤].

وقد تجاوز النبي صلى الله عليه وسلم التركيز على المشكلة والدافع الذي بعث على كسر الصحفة إلى الحلّ، فعالج الموقف بما يحلّ المشكلة، ولم يصعّد الموقف، فقد جمع الطعام في الصحفة المكسورة، ثم ألقاه في الصحفة الصحيحة، فحلّ مشكلة الطعام وقدّمه لضيوفه.

ولما كان الموقف أمام الصحابة كان لا بد من أسلوب يخفِّف حدّة الموقف واستنكار الصحابة؛ لذلك بادر عليه الصلاة والسلام بقوله: ((غارت أمكم)) ولم يقل غارت عائشة، وكأنه بذلك يقول هذه أمّكم وأنتم أبناؤها فاستم بغرباء، فتنظروا للموقف باستغراب، وقد حبس الخادم، ولو تُرك يذهب لأُمّ سلمة بالصحفة المكسورة ليخبرها بما صَنعت عائشة لتصعّد الموقف بينهما، وزادت الفجوة ووقع النزاع والخلاف، ولكن الحكمة النبوية اقتضت حبس الخادم حتى يأخذ الصحفة الصحيحة حلاً للمشكلة من جانب، وتأديباً لعائشة رضي الله عنها من جانب آخر.

ولو وقع هذا الموقف الذي باعثه الغيرة مع زوج آخر؛ لوقع رد فعل آخر، قد يصل إلى الطلاق والفراق، الذي يؤدي كثيراً إلى ضياع الأبناء، وفقدهم لحنان الأمومة أو عطف الأبوة، وهذه القصة التي نقدم بها

لسياق الغيرة تكشف عن شدة غيرة عائشة رضي الله عنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلك الغيرة التي باعثها الحب والتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقد قدمت لها بهذا السياق لتنا سبها مع سياق الغيرة، دون أن يكون فيها الحوار النبوي الذي هو موضع الدراسة.

السياق الأول:

خرج النبي صلى الله عليه وسلم من عند عائشة رضي الله عنها ليلاً، قالت: ((فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع، فقال: مالكِ يا عائشة أغِرتِ فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك، فقال: أو قد جاءك شيطانك، قلت: يا رسول الله أو معي شيطان؟ قال: نعم، فقلت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم. قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم)) (٣٥).

مهّدت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لهذا الحوار النبوي ببيان سببه وهو خروج النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً دون أن يكون خروجه نهاراً، وهذا هو سبب غيرتها رضي الله عنها، لا سيما وأن المبيت في تلك الليلة كان من نصيبها وحظها دون غيرها.

وقد بدأ الحوار بالاستفهام ((مالكِ يا عائشة أغرتِ؟ وناداها باسمها، وهذا حاله صلى الله عليه وسلم في حواره معها – كما أسلفنا – ولم يبادر صلى الله عليه وسلم بالحكم على عائشة بالغيرة بالرغم من ظهور أمارات ذلك وعلاماته له، وإنما سألها: أَغرْتِ؟ فاستفهم بالهمزة التي جاءت هنا للتصديق، الذي هو إدراك النّسبة، فلَم ينسب النبي صلى الله عليه وسلم الغيرة لعائشة رضي الله عنها بأسلوب الخبر، وإنما استفهم عن نسبة الغيرة لها في هذا المقام متضمناً الاستغراب مما صنعت، حتى يتأكد مما ظهر له، وأنَّ دافعه الغيرة ليكون ردّه متوافقاً مع العلة والباعث، ولم يأت ردّ عائشة رضي الله عنها بقولها (نعم) أو (لا)، وإنما أجابت بقولها: (وما لي لا يغار مثلي على مثلك) فجاء ردّها معلّلاً للغيرة، متضمناً الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم، فقابلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها استغراب النبي صلى الله عليه وسلم هذه الغيرة باستغراب آخر، فجعلت موطن الاستغراب هو عدم غيرة فتاة

كعائشة على حبيبها وعشيرها، وهو بهذه المنزلة السامية والمكانة العالية.

وهنا يكشف لها النبي صلى الله عليه وسلم عن عدوٍّ لم تتفطن له عائشة، ولم تتبيّنه فقال ((أوقد جاءك شيطانك؟)) والنبي صلى الله عليه وسلم يخرج عن تأنيب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وزجرها، إلى ربط هذا الفعل بكيد الشيطان ومكره؛ وهنا تستغرب عائشة، وتتعجب فتقول: ((أو معي شيطان؟))؛ وهذا أسلوب استفهام تعجبي، فيقول صلى الله عليه وسلم: نعم، ليكون الاسترسال الطبيعي في الحوار قد جرَّ إلى سؤال آخر، هو موضع استغراب عند عائشة، فتقول: ((ومع كل إنسان))، فيأتي الجواب: نعم، وهنا تتساءل يا ترى هل سيكون مع رسول الله شيطان، إذ هو إنسان، والجواب السابق يدل على أن مع كل إنسان شيطان، فتقول عائشة رضي الله عنها: ومعك يا رسول الله؟ أي ومعك أنت شيطان؟ وقد جاء حذف لفظة الشيطان وهو المسند إليه "المبتدأ" وذلك تأدباً مع النبي صلى الله عليه وسلم واحترازاً عن العبث.

وهنا يكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجود شيطان معه، لكنه ليس كغيره من الشياطين، فقد أسلم ولا يأمر إلا بخير، وهذه خاصة بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم؛ والحوار هنا يتجه من المسار المتوقع له، – مسار الزجر والتقريع – إلى بيان من يدفع لذلك السلوك، فيكشف حلقة من حلقات العداوة، ويظهر ميداناً من ميادين الخصومة التي تقع بين الإنسان وبين شيطانه.

وإذا قارنا هذا الموقف وهذا الحوار، بما يقع اليوم نجد شدة الانحراف عن المنهج القويم، والسلوك المستقيم؛ إذ غيرة امرأة اليوم على زوجها، وتصرّفها تصرّف عائشة رضي الله عنها؛ يعرّضها لأشد العقوبة، وأغلظ الكلام، وأبشع العبارات، ويخلق مشاكلات عديدة، ويوصل إلى أنفاق مظلمة من الشكوك والتُّهم المتبادلة، وقد تتَّسع دائرة الخلاف ليَتضرَّر أهل الزوجين وأقارب العشيرين، لأن الحوار غير الحوار، والتصرف غير التصرف، وعقلية النبوة المعصومة، غير عقلية الهوى والتعصب.

والمتأمل في الحوار السابق يتبين له عقلية النبي الرحيم الحليم المشفق ببُعْد نظره وسعة أُفقه عليه الصلاة والسلام، مع عقلية الزوجة الغيور التي لا تسمح لأحد أن يشاركها زوجها، حتى أَصبحت تغار عليه من كل شيء؛ ويكشف الحوار عن حُبّ عائشة رضي الله عنها للعلم، وحرصها على المعرفة؛ فقد اتصلت أسئلتها حتى كشفت لنا الستار عن وجود قرين مع كل إنسان، وحرصها رضي الله عنها على السؤال من أسباب سعة علمها وكثرة مرويّاتها.

ويُظهر الحوار تأدب عائشة رضي الله عنها، إذ لم تخاطب النبي صلى عليه وسلم – وهو زوجها وحبيبها – باسمه، وإني بلقبه، وبأعلى درجات الرقي وهو الرسالة، بقولها " يارسول الله"، وهذا أدب جميل من آداب أم المومنين عائشة رضي الله عنها في حوارها مع سيّد الخلق صلى الله عليه وسلم.

السّياق الثاني:

جاء عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكّر خديجة أثنى فأحسن الثناء، قالت: ((فَغرتُ يوماً، فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها، قال صلى الله عليه وسلم: ما أبدلني الله خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمني أولاد النساء)) (٣٦).

لعلّ النبي صلى الله عليه وسلم - وهو يتذكّر خديجة ويثني عليها - كان ينتظر من عائشة رضي الله عنها أن تشاركه مشاعره وأحاسيسه، وهو يتذكر زوجته الحنون التي واراها في الثرى، وهل كان يتصوّر أنَّ عائشة رضي الله عنها ستغار منها، وقد ماتت وفارقت الحياة، ولم تعد تشاطرها عشّ الزوجية، إلا أنه تفاجأ صلى الله عليه وسلم من عائشة رضي الله عنها وهي تقول: ((ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها) وقد جاءت صورة الكناية في قولها " حمراء الشدقين" أي أنها عجوز طاعنة في السن قد سقطت أسنانها فتبدو اللثة حمراء ليس عليها من الأسنان ما يزيّنها أو يستر حمرة

الفم؛ وبلاغة الكناية هنا تتمثل في إثبات كِبَر سنّ خديجة من خلال هذا الوصف، إذ سقوط الأسنان يؤذن بالشيخوخة والكِبَر في الكثير الغالب.

وقد صرّحت عائشة رضي الله عنها أن دافعها لهذا القول هو الغيرة من خديجة رضي الله عنها، إذ التعبير بقولها "ما أكثر ما تذكرها" يدل على ملمح بلاغي في الحوار، وهو كثرة ذِكْر الرسول صلى الله عليه وسلم لها، حتى غارت منها عائشة رضي الله عنها، ولعلها أرادت بقولها ذلك أنْ يتناسى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الزوجة التي هلكت، وظنّت أن الله قد أبدله خيراً منها، تعني بذلك – والله أعلم – نفسها فهي الفتاة البكر الجميلة، الصدِّيقة بنت الصدِّيق. بينما كانت خديجة ثَيِّباً كبيرة؛ وهنا يأتي الردّ المباغت لعائشة رضي الله عنها ((ما أبدلني الله خيراً منها))؛ ولأن هذا الرد سيكون موضع استغراب وإنكار من عائشة رضي الله عنها؛ فقد أتمّ صلى الله عليه وسلم حديثه مبرِّراً لذلك، مبيِّناً فضلها، وكاشفاً عن مناقبها؛ فإن خديجة أول من آمن به، والناس حينئذ يكفرون بما جاء به عليه الصلاة والسلام، وهي مَنْ صدّقته بكل ما جاء به بلا شك ولا تردّد، وقد سخت له بمالها، ولم تبخل عليه، رُزق منها الولد، وحُرِم من غيرها، ولم يسمع منها ما يغضبه عليه الصلاة والسلام.

وفي تكرار "إذ" تأكيد على جانب الزمن لأهميته في هذا السياق، فهذه المناقب الثلاث من إيمان وتصديق ومواساة، إنما تجمل وتحسن حينما تتسم بالمبادرة وعدم التردد أو التعثر، لحظة كفر وتكذيب وخذلان من الناس، وبينما تتردد "إذ" في الجمل الثلاث الأولى، فإن الجملة الرابعة تخلو منها، وهو قوله صلى الله عليه وسلم "ورزقني الله ولدها وحرمني أولاد النساء" إذ اختيار الإيلاد ليس في مقدور البشر، ولا تملك المرأة المبادرة فيه، وإنما هو توفيق ورزق من الله؛ ولذا قال "ورزقني الله ولدها" ولم يقل "وقد ولدت لي" فنسب هنا الفعل إلى الله، مع ما تتضمنه هذه الميزة من مكانة لخديجة ومنزلة، فضلا عن أنّ ولادة الأولاد متعددة الأزمنة على مدار حياتها رضي الله عنها، أما الثلاث الأُول؛ فقد

كانت في بداية الدعوة، وفي أمس الحاجة إليها، لذا جاء التعبير في الجملة الرابعة بدون "إذ".

لقد جاء الحوار السابق ليكشف لعائشة رضي الله عنها سرَّ كثرة ذكره صلى الله عليه وسلم لخديجة، فذكرها ما انفردتَ به من المناقب عن غيرها، فاستحقَّت ألا يذكرها صلى الله عليه وسلم إلا وأثنى عليها.

والحوار يكشف عن جانب من خُلق الوفاء الذي تميز به النبي صلى الله عليه وسلم، فهو وفيٌّ مع زوجته حيَّة وميتة، وكأنه صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة ما رأيتِ من ذكر خديجة رضي الله عنها، إنما هو من الوفاء الواجب عليَّ تجاهها، يُنهي بذلك استغرابها رضي الله عنها كثرة الثناء على خديجة رضي الله عنها، ومن اللافت للنظر في هذا الحوار أن عائشة رضي الله عنها قد اقتنعت بما قاله صلى الله عليه وسلم فلم تجادله، وبهذا يظهر جانب من إقناع النبي صلى عليه وسلم بما ذكره من مزايا خديجة التي تؤهلها لهذه المكانة العالية في قلب النبي صلى الله عليه وسلم مما أفحم عائشة رضي الله عنها، فلم تردّ ما قاله بالرغم من دافع الغيرة التي تدفعها إلى الردّ والمجادلة والإقناع.

السياق الثالث:

وهذا موقف آخر يكشف عن غيرة عائشة رضي الله عنها أيضاً، فحين خرج صلى الله عليه وسلم ليدعو لأهل البقيع، وخرجت عائشة رضي الله عنها وراءه، فرآها فسألها حين دخل عليها، وقال: ((مالكِ يا عائش حشيا رابية. قلت: لا شيء. قال: لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير، قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فلهدني في صدري لهدة أوجعتني)) (٣٧).

وبالرغم من تشابه هذا الحوار بحواره صلى الله عليه وسلم السابق ((مالك يا عائشة أغرتِ)) إلا أنَّ هذا الحوار جاء النداء فيه بالترخيم "يا عائشَ" خلاف الأول، وجاء فيه ذكر ما يدلّ على غيرتها وتصرّفها بقوله صلى الله عليه وسلم ((حشيا رابية)) أي قد وقع عليك الحشا، وهو التهيُّج الذي يعرض للمُسْرِع في مشيته وكلامه من ارتفاع النَّفَس

وتواتره، بينما لم يتجاوز النبي صلى الله عليه وسلم في الحوار السابق قوله ((أغرتِ))؛ فجاء جوابها باعترافها بذلك، أمَّا في هذا الحوار فعلى الرغم من وجود ما يدل على سيرها خلف النبي صلى الله عليه وسلم وغيرتها عليه، إلا أنها قالت: لا شيء، تريد أن تنكر ما حدث منها، فلما أصرّ عليها النبي صلى الله عليه وسلم، وحذَّرها بقوله "لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير"، اعترفت وأخبرته، فقد جاء في رواية ابن حبان ((قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي فأخبرته الخبر)) (٣٨).

واستخدام اللام في الفعلين " لتخبرني أو ليخبرني" له دلالته البلاغية في السياق؛ إذ تأكيد الأسلوب بالقسم المحذوف الذي يدل عليه اللام هنا يدل على شدّة إلحاح النبي صلى الله عليه وسلم لمعرفة حقيقة ما وقع من عائشة رضي الله عنها حتى يعالج السلوك ويتعامل مع الموقف.

وقد لهدها النبي صلى الله عليه وسلم في صدرها لهدة أوجعتها، أي: دفعها في صدرها تأديباً لها من سوء الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال صلى الله عليه وسلم: ((أظننتي أن يحيف الله عليك ورسوله)) (٣٩). والحيف هو: الظلم، وحاشا أن يقع من النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أعدل الخلق وأبرّهم، ولم يقل ((أظننتي أن يحيف عليك رسول الله)) وإنما قال: "أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله" أي ما كنت لأفعل أمراً إلا أن يأمرني الله به، والله لا يأمرني إلا بالحق، وهذا من قوة إقناع النبي صلى الله عليه وسلم وروعة بيانه وحسن تصرّفه في القول.

ولئلا يبقى في نفس عائشة رضي الله عنها شيء من الشكّ والحيرة في خروج النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً من حجرتها، فقد قال صلى الله عليه وسلم في رواية ابن حبّان ((فإن جبريل عليه السلام أتاني حين رأيت، ولم يكن يدخل عليك، وقد وضعتي ثيابك فناداني، فأخفي منك، فأجبته، فأخفيتُ منكِ، فظننت أن قد رقدتِ، وخشيت أن تستوحشي، فأمرني أنْ آتي أهل البقيع فأستغفر لهم)) (٤٠).

نلاحظ استخدام صلى الله عليه وسلم أدوات التوكيد "فإنَّ، وقد، أنّ قد" فضلاً عن تكرار الفاء التي تفيد العطف مع التعقيب والسرعة، وكل ذلك جاء به ليزيل ما عَلِق في نفْس عائشة رضي الله عنها من غيرة، أو ريب في فعل النبي ﷺ.

وأين هذا من حال بعض الأزواج الذين يعيشون بين الصمت القاتل والردّ اللاذع؟

المبحث الرابع: سياق الإرشاد:

يُشْغَل بعض المسلمين بإرشاد الناس ودلالتهم على الخير، وهذا من الخير الذي لا يوفَّق له إلا من أعين وسُدِّد، غير أن اشتغال المسلم بدلالة الغير على الخير، وإرشادهم لما ينفعهم، ينبغي أن ينطلق من بيته، وأن يكون أهله أول المنتفعين به، المسترشدين بدعوته، المستنيرين بنور الله الذي وهب له، وهذا ما نجده في بيت النبوة من النبي صلى الله عليه وسلم لأهله؛ وقد كان لعائشة رضي الله عنها الحظّ الأوفر.

السياق الأول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السأم عليكم، قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: وعليكم السأم واللعنة، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كلّه، فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قد قلت وعليكم)) (٤١)، وفي رواية: ((أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ)) (٤٢).

فهذا الحوار يكشف عن جانبين من شخصية عائشة رضي الله عنها أولهما: الفطنة ودقة الملاحظة، حيث فهمت مراد اليهود القبيح وغرضهم السيئ، والجانب الآخر: الحدّة التي تمثلت في سرعة ردّها رضي الله عنها بالسبّ والشتم، وعدم تريثها بالرغم من وجود زوجها بأبي وأمي عليه الصلاة والسلام.

وقد جاء ردّه صلى الله عليه وسلم في حواره معها كاشفاً عن حسن إرشاده وبراعة تعليمه، وعن حلمه وحكمته، وذلك أنه بدأ قوله معها ((مهلاً يا عائشة)) فجاءت لفظة ((مهلاً)) مرشدة إلى التريّث والتمهل، وعدم العجلة، وقد حَسُن تقديم المصدر على النداء، بخلاف ما ظهر في الحوارات السابقة، لما يتطلبه سياق الإرشاد هنا من تقديم ما يتناسب في معالجة العجلة وسرعة الرد دون تمهّل؛ لذا صُدِّر الحوار بلفظة ((مهلاً)) ولم يقل لها تتكلمين وتشتمين دون مبالاة بوجودي، فلم يخدش كرامتها، ولا جرح مشاعرها، وإنما أرشدها للصواب بقوله: ((إن الله يحب

الرفق في الأمر كله)) فأوصاها بالرفق بجملة خبرية، ولم يقل افعلي ولا تفعلي، وهذا من روعة التعليم؛ لأن النفس تنفر عادة من الأمر والنهي المباشر، فكأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: إن كنتِ تحبين ما يحب الله فاعلمي أن الله يحبّ الرفق؛ ليس في أمر دون آخر، بل الرفق في جميع الأمور، حتى ولو كان الخصم يهودياً أو متجاوزاً حدّ الأدب؛ فإنه لا يقابل باللعن والسبِّ والفحش، و كل هذه المعاني دلَّ عليها الأسلوب الخبري الذي اختاره النبي صلى الله عليه وسلم تعبيراً عن المراد، وبأداة التوكيد "إنّ" والتوكيد المعنوي " كلّه" .

وقد استغربت عائشة رضي الله عنها أن يتجرَّأ اليهود في بيت النبي صلى الله عليه وسلم على إساءة الأدب معه، والدعاء عليه علناً دون توارٍ أو خوف، فرأت أنهم يستحقون ما قالت لهم؛ ولذا قالت ألم تسمع يا رسول الله ما قالوا؟ وهنا جاء الرَّد الذي لا يحسنه إلا نبي ((أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم أي بقوله: وعليكم، فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في)) .

والاستفهام هنا يأتي على حقيقته، وقد جاء رد النبي صلى الله عليه وسلم على هذا السؤال موجزاً ، دالّا على أمرين، الأول : أنه سمع ما قاله اليهود ، والثاني: أنه ردّ عليهم ما قالوا، ونلاحظ كل هذا من قوله صلى الله عليه وسلم مؤكدا "قد قلت: وعليكم"، أيْ: سمعت ورددت.

وبهذه الرواية يتجاوز النبي صلى الله عليه وسلم النصح بالرفق، إلى تسكين غضبها، وتهدئة حِدّتها، ببيان أثر ما قاله اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ((لا شيء))، وثمرة ما قاله صلى الله عليه وسلم وهو استجابة دعائه صلى الله عليه وسلم، وبهذا ينقل النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من القول المسموع إلى الثمرة المتوخاة من المقالين، فظاهر الحدث يغضب من يحب النبي صلى الله عليه وسلم، وحقيقة الثمرة تبهج محبّيه صلى الله عليه وسلم، وقد أبرز ذلك عليه الصلاة والسلام في التضاد السلبي في قوله ((فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في)).

وا لحوار يظهر لنا عقلية المرأة بانفعالها، وثأرها لزو جها، و سرعة قرارها، وعدم تريثها في الرد، مع عقلية النبي صلى الله عليه و سلم الذي عُصم من الفحش في القول، ولم يبعث لعّاناً ولا سبَّاباً ولا صخَّاباً، مع خُلُقه العظيم الذي زيّنه ا لحلم، و جملّته ا لحكمة، ودبّجته الأناة.

السياق الثاني:

وفي موقف من مواقف النصح ومقام من مقامات الإرشاد، تقول عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك: قال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته، قلص دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرة، وقلت لأبي: أجبْ عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت لأمي أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: والله ما أدري ما أقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وأنا جارية حديثة السنّ لا أقرأ كثيراً من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدّقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم إني لبريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إني بريئة لتصدقني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف؛ إذ قال: ﴿ ﴿ ﴿ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ الْمَائِدَةِ ﴾ ، ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن يُنْزل في شأني شيئاً، ولأنا أحقر في نفسي من أن يُتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا تبرئني، فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء، حتى إنه يتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاةٍ، فلما سُرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة احمدي الله، فقد برَّأك الله، فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا والله لا أقوم

إليه، لا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النور: ١١](٤٣).

لقد كادت حادثة الإفك أن تحقق مراد المنافقين لهدم وحدة المسلمين وإشعال نار الفتنة بينهم، ولكن الله سلّم، وتمكن النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الظروف الحالكة أنْ يجتاز هذا الامتحان الصعب، وأن يصل بالمسلمين إلى شاطئ الأمان.

وقد استهل النبي صلى الله عليه وسلم حواره لعائشة بقوله: ((يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا)) فإنَّ فداحة الحدث لم تمنع النبي صلى الله عليه وسلم من استهلال حوار عائشة بمناداتها باسمها كما هو حاله في سياقات الحوارات الأخرى، وقد حسن سكوت عائشة رضي الله عنها عن ذِكْر تفصيل ما سألها عنه النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه مما شاع وأفاض الناس فيه، وحسن الاكتفاء عنه بقولها ((كذا وكذا)) من الإيجاز الرائع المتمثل في الاحتراز عن العَبث؛ إضافة إلى كون حديث الإفك مما ينبغي التعريض له دون تفصيله، لما يحتوي عليه من اتّهام بالفاحشة، وقذف بالرذيلة التي برَّأ الله أم المؤمنين منها، وقد أرشدها صلى الله عليه وسلم إلى ما تفعله إن كانت أذنبت، فقال: ((فإن كنتِ ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه))، واختار لفظة ((ألممتِ)) التي تعني إتيان الذنب من غير عادة على سبيل الهفوة والسقطة، أي ما هذه لكِ بعادة وما هو لكِ بطبع، وقال صلى الله عليه وسلم ((بِذنب)) فنكّر الذنب، ليفيد العموم والشمول أي ذنب وقع صغيراً أو كبيراً، وكنَّى بذلك عن الفاحشة تأدباً منه صلى الله عليه وسلم معها، وحفظاً لكرامتها وكرامة أبويها وهما يستمعان حديثه صلى الله عليه وسلم.

وقدّم طلب المغفرة على التوبة، إذ المغفرة من فعْل الخالق فلا يملك المغفرة أحد سواه، وما يتعلق بفعل الله يقدّم على فعل المخلوقات، وهو التوبة إلى الله، على أن التوبة مما يحبه الله ويرضاه، وقد جاء تقديم الاستغفار هنا متوافقاً مع تقديم الاعتراف بالذنب على التوبة في قوله صلى الله عليه وسلم "فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله

عليه"، فقدّم الاعتراف الذي يتضمن الاستغفار على التوبة، ثم رتّب عليهما قبول توبة العبد.

واستخدام "إذا" في هذا السياق دلالة على أنّ الإنسان لا مفرَّ مذنب، ثم جَعَل له فرصته على سبيل التراخي تمثل في قوله "ثم تاب" لتعطي فرصة لعائشة في التّوبة إن كانت ارتكبت ذنباً، واستخدم النبي صلى الله عليه وسلم "إن "الشرطيه" بدلاً من "إذا" في قوله "فإن كنت ألممت بذنب" تفيد التشكيك وعدم القطع في الجواب، أمّا "إذا" تفيد تحقق الجواب، وهذا من بلاغته صلى الله عليه وسلم .

وبهذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يحافظ على علاقته صلى الله عليه وسلم مع زوجته بالرغم من عظم الموقف وشدته، و كونه يمثّل أعظم البلاء وأشدّ أسباب التأثير في علاقته معها.

وقد كان جواب عائشة رضي الله عنها بالرغم من اعتذار أبويها، دالاً على ثباتها وجرأتها، وحُسن بيانها، ولطافة مقالها، فإنها لم تقل إنني بريئة كما هو المتوقع من جواب البريء مثلها، وإنما جاءت باحتمالين لا ثالث لهما، فقالت (ولئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقني) فأو كلت أمرها إلى الله ومثَّلتْ حالها بحال يعقوب حين وقع في الكرب وأحاطت به الرزيئة فقال: ﴿ ﴾ ﴿سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَة آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ المَائِدَة﴾.

وقد ذُهلت من الموقف فنسيت اسم يعقوب وذكرته بالكنية؛ وسرعان ما جاء الفرج، ونزلت البشرى ببراءتها رضي الله عنها فزادتها حادثة الإفك رفعة ومكانة، وقد أراد أهل النفاق إسقاطها بها، وقطع علاقتها بحبيبها صلى الله عليه وسلم، وإضعاف مكانة النبي صلى الله عليه وسلم في النفوس وإسقاط مقامه، فوقع نقيض ما أرادوا ولله الحمد.

وفي هذا الحوار دلالة على مرارة الظلم الذي تشعر به عائشة رضي الله عنها، نستشفّ ذلك من قولها: "لئن قلت لكم إني بريئه لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئه لتصدّقنّي ...، وهذا يدل أيضاً على قوتها في الحوار، وتملّكها زمام اللغة، وقدرتها على التعبير مما في نفسها، في أسلوب تنّوع بين الاستفهام والإخبار والقسم والتوكيد ...الخ

وقد تجلّت في الحوار خاصية الإرشاد والوعظ بأسلوب يتميّز بالرّقة والهدوء، والحرص على من يعظه ويرشده.

السياق الثالث:

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل: ((﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهم الذين يزنون ويسرفون ويشربون الخمر، قال: لا يا ابنة الصدّيق، ولكنهم الذين يصلّون ويصومون ويتصدقون))[٤٤].

جاء هذا الحديث في سياق إرشاد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى الصواب في فهم الحديث، وفي قوله صلى الله عليه وسلم ((لا يا ابنة الصديق)) منقبة عظيمة، و كأنه يقول: أنت الصديقة بنت الصديق، وهذا من حسن أدبه صلى الله عليه وسلم في حواره لزوجته، وهو تذكير لها بشرف منزلة أبيها وانتخاء لها لتبلغ تلك المنزلة، كقولك: يا فلان، أبوك عالم، تريده يسلك طريق العلم، وقولك: يا ابن الكرماء، تعني كن كريماً كما أن آباءك كرماء.

وقد ناسب النداء السياق لكون الحديث لا يتحدث عن عصاة مجرمين يخافون من تلك الذنوب، وإنما يتحدث عن مصلّين وصائمين ومتصدقين، ومع ذلك يخافون ألا يُقبل منهم[٤٥]، فهذه منزلة عظيمة كتلك المنزلة العظيمة التي جاءت في النداء ((يا ابنة الصّدّيق)).

وقد جاء الحوار في أمر عام من أمور الإسلام، ولم يكن بالحوار الأسري الذي يأتي لمناقشة شئون الأسرة وأمور البيت، وهذا من تقدير المرأة وإشراكها في معرفة الأمور العامة، خلاف ما عليه بعضهم من اعتقاد أن المرأة لا ينبغي أن يتجاوز اهتمامها دائرة الأسرة وعش الزوجية.

الخاتمه

الحمدلله الذي تتم بنعته الصالحات وبتوفيقه تكفّر الخطايا والسيئات والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً وبعد

فقد جاءت هذه الدراسة في خصائص الحوار النبوي مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها باحثة في سياقات ذلك الحوار وصوره ، وقد تشكّل هذا الحوار في عدة سياقات، وقد تم إبراز خصائص الحوار في هذه السياقات من خلال النماذج التي تمَّ إيرادها في كلِّ سياق، وعمدت الدراسة على تحليلها وإبراز سماتها الموضوعية والأسلوبية
يمكن إيجاز ما توصلت إليه هذه الدراسة فيما يأتي:

أولاً: أبرز السمات الموضوعية:

١- كان النبي صلى الله عليه وسلم يخص عائشة رضي الله عنها بكلمات عاطفية رقيقة من نحو قوله ((يا حميراء))((يا عائش)) و كذا كثرة نداء عائشة با سمها مما لا نجد له نظيراً في نداء أمهات المؤمنين رضي الله عنها.

٢- مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لحال عائشة في حواره معها، ما بين سياق المرح، وسياق الغيرة، وسياق الغضب ونحو ذلك، ففي كل سياق يأتي الحوار مناسباً له ومتسقاً معه،وهذا ما ينبغي للداعية مع المدعو والمربي مع المتربي.

٣- برزتعامل عائشة رضي الله عنها من خلال حوارها في المواقف الحادة، تارة غيوراً تنسى مع غيرتها عظم مقام النبوة، وجلال قدر الرسالة، وتبرزتارة غضبي، قد احتدت واشتد غضبها، فيعالج النبي صلى الله عليه وسلم الموقف بالحكمة ويرشدها للصواب، فالمرأة تنظر لزوجها باعتبار الزوجية، لا باعتبار مقامه، ومكانته

ومنزلته، فهي تريد منه ما تريد المرأة من زوجها من المشاعر والأحاسيس والرعاية والقوامة.

٤- تجاوزا لحوار بيت النبوة وشئون الأسرة في حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع عائشة رضي الله عنها، حيث نجد ذلك في حديثه معها عن صحة نسب أسامة بن زيد رضي الله عنها، وفي بيانه لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وإجابته على سؤالها، حيث الحوار عن جانب الدين وبيان شرائع الإسلام مما ينبغي لكل زوج مع زوجته، لتبصر الأسرة طريقها إلى الله، وتسلك المنهج القويم، والصراط المستقيم.

٥- تلقّى النبي صلى الله عليه وسلم حديث الإفك الذي يمثل أعظم البلاء، وأشد أسباب التأثير في علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة، بالأناة والحكمة والتريث، ولم يتعجل في صدق الفرية، ولم يطلقها تحت وطأة حديث الناس في عرض عائشة رضي الله عنها،وإنما سألها واستفسر منها، ولم يتجاوز ذلك لتأنيبها أو زجرها، ولم يقع منه صلى الله عليه وسلم في ذلك الموقف مع شدته أذى قولي أو فعليّ في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٦- يُفضي النبي صلى الله عليه وسلم بسره إلى زوجته عائشة رضي الله عنها في حواره معها، وقد كان إخبار النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة بسرّه، وجهاً من وجوه تكريم المرأة، ومظهراً من مظاهر احترامها، وضرباً من ضروب الحفاوة بها.

ثانياً: أبرز السمات الأسلوبية:

١- تميزّ سياق البشارة بغلبة الأُسلوب الإنشائي عليه؛إذ فيه الاستثارة العقلية، مع اقتضاء الكلام للبسط، ومع وجود هذا الأسلوب في السياقات الأخرى، إلا أنَّ بروزه في هذا السياق كان أَوضح وأَظهر، وتميز سياق البشارة أيضا بصور التشبيه البيانية.

٢- تميز سياق المداعبة والمرح برقّة النداء، إذ لا نجد النداء بـ "حميراء" في غير هذا السياق، ويمكن القول بأنه أرق سياقات الحوار من هذا

الوجه؛ وقد جمع حوار هذا السياق بين الكلمة الحانية، والممارسة الفعلية المتمثّلة في تمكين أم المؤمنين رضي الله عنها من المرح، ونلاحظ أيضاً أن مواقف المداعبة والمرح غالباً ما تُختتم بالتبسم والضحك، فتكون الابتسامة هي مسك الختام، وخاتمة الموقف، فقد تُنسى الكلمات؛ ولكن الابتسامة الحانية المشفقة إذا جاءت أخر الحوار، بقيت ذكرياتها، ورسخت في ذهن المتلقي ومخيّلته.

٣- تميّز سياق الغيرة بظهور الأناة وحسن التعامل مع موقف الغيرة، وما ينتج عنه من تصرف، وقد برزأ سلوب الإقناع في هذا السياق، نلاحظه في دفاعه صلى الله عليه وسلم عن سبب حبّه لخديجة رضي الله عنها، فقد ذكر من المبّررات مايسوّغ له صلى الله عليه وسلم المبالغة في الثناء، مما أفحم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فلم تردّ كلامه، ولم تعقّب على مقاله.

٤- سياق الإرشاد يكشف عن شخصية النبوة الهادئة، شخصية أم المؤمنين المرهفة الحس حادة الطبع، تجلّى ذلك بوضوح في دعاء اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم،وحسن ردّه عليهم، وغضب عائشة رضي الله عنها وردّها عليهم بقسوة وحدّة .

٥- وقد تميّز حوار سياق الإرشاد - أيضاً – بالتعريض في موطنه الذي يقتضيه، وعدم التصريح باللفظ الذي يخدش الكرامة ويجرح المشاعر، وأوضح ما نجده في حوار الإفك.

٦- وتميز حوار سياق الإرشاد بالجمع بين الجدّ من جهة، واللطف من جهة أخرى، نلاحظ ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم "لا يا ابنة الصديق" فقد جاء ردّ النبي صلى الله عليه وسلم جامعاً بين الإرشاد للصواب، والثناء على أم المؤمنين وحسن ملاطفتها بالثناء على أصلها،ومدح أبيها، وفي هذا تذكير بشرف منزلتها ومكانة أسرتها.

٧- اعتمد الأسلوب على الطباق في تأكيد الفكرة وتعميق المعنى ونصاعة اللفظ.

٨- حرارة العاطفة وصدقها، مما يُضْفي أجواء الحب والحنان.

٩- تراوح الحوار بين الإيجاز المتمثل في قصر الفقرات في السؤال والجواب وبين الإطناب في السياقات التي تستدعيه ، لكون السياق يفتقر إلى مزيد إبانة و كثرة إيضاح.

١٠- غلبة الحوار المباشر المعتمد على الدلالة المعنوية الظاهرة من اللفظ مع وجود بعض الصور المجازية من تشبيه و كناية جاء بيانها في ثنايا البحث.

الهوامش

(١) يُنظر: البيان والتبيين، الجاحظ، ج٢ ص١٧– ١٨.
(٢) ينظر: وحي القلم، الرافعي، ج٣ ص ٩٠٦.
(٣) سنن الترمذي، رقم (٣٨٨٦).
(٤) صحيح البخاري، رقم (٢٥٨١).
(٥) سنن الترمذي، (٣٨٨٩).
(٦) سنن الترمذي، رقم (٣٨٨٣).
(٧) ينظر : دلائل الإعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، ص ٦٦، ٢٥٤، ٤٢٢ .
(٨) مسند البزار، رقم (٣١١٩).
(٩) صحيح البخاري، رقم (١٣٩٨٩).
(١٠) صحيح مسلم، رقم (٥٨٣٢).
(١١) ينظر: السياق وتوجيه دلالة النص، د. عيد بلبع، ص٣١٥.
(١٢) ينظر: تحرير التحبير، ابن أبي الأصبع المصري، ص١٨٥.
(١٣) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ج٣، ص١٦٧.
(١٤) شرح السنة الإمام البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش ، ص١٨٦.
(١٥) المنهاج بشرح صحيح مسلم، النووي ، ج١٤، ص١٧٦.
(١٦) السابق نفسه.
(١٧) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق، ج١، ص٤٩.
(١٨) التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، ص١٠٩.
(١٩) ينظر: أسلوب الحوار النبوي "دراسة بلاغية" د. خليل محمد أيوب، ص٣٦٦.
(٢٠) صحيح البخاري، رقم (٤٦٢٤).
(٢١) صحيح البخاري، رقم (٥٧٦٣).
(٢٢) صحيح البخاري، رقم (٣٧٦٨).
(٢٣) صحيح البخاري، رقم (٣٧٦٨).
(٢٤) لسان العرب، مادة (قرأ).
(٢٥) صحيح البخاري، رقم (٣٤٨٤).

(٢٦) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ، ص٣١.
(٢٧) صحيح البخاري، رقم (٣٨٢٠)، وصحيح مسلم (٢٤٣٢).
(٢٨) سنن النسائي، رقم (٨٣٠١).
(٢٩) فتح الباري، ابن حجر، ص٧، (٥١٩).
(٣٠) صحيح البخاري، رقم (٦٣٨٩).
(٣١) سنن النسائي الكبرى، رقم (٨٩٥١).
(٣٢) فتح الباري، ابن حجر، ج٢، ص٤٤٤.
(٣٣) سنن ابن ماجه، رقم (١٤٦٥).
(٣٤) تخريج مشكاة المصابيح، الألباني، رقم (٥٩١٧).
(٣٥) سنن أبي داود، رقم (٤٩٣٤).
(٣٦) فتح الباري، ابن حجر، ج١٠، ص٢٧.
(٣٧) صحيح البخاري، رقم (٤٨٢٤)، وسنن النسائي، رقم (٣٨٩٤).
(٣٨) رواه مسلم، رقم (٥٠٣٥).
(٣٩) مسند أحمد، رقم (٦٧٧٥).
(٤٠) صحيح مسلم، رقم (١٦١٩).
(٤١) صحيح ابن حبان، رقم (٧١١٠).
(٤٢) السابق نفسه.
(٤٣) صحيح ابن حبان، رقم (٧١١٠).
(٤٤) صحيح البخاري، رقم (٥٦٧٨).
(٤٥) السابق، رقم (٥٦٨٣).
(٤٦) صحيح البخاري، رقم (٢٦٦١) وصحيح مسلم، رقم (٢٧٧٠).
(٤٧) مسند الحميدي، رقم (٢٧٥).
(٤٨) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، تحقيق: أبو عثيم ناصر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٣هـ، ص٢، ج١، ص١٩٠.

مراجع البحث:

١- أسلوب الحوار في الحديث النبوي، د.خليل محمد أيوب، دار النوادر، دمشق، ط١، ١٤٣٣هـ .
٢- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣- البيان والتبيين، الجاحظ، دار الجيل، ١٤١٠هـ.
٤- تحرير التحبير، ابن أبي الأصبع، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٣٨٣هـ .
٥- تخريج مشكاة المصابيح، المكتبه الشاملة .
٦- التصوير البياني، دراسة تحليليه لمسائل البيان د. محمد محمد أبو موسى، مكتبه وهبة، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ.
٧- دلائل الإعجاز ،عبدالقاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط٣ ،١٤١٣ه .
٨- سنن ابن ماجه.
٩- سنن أبي داوود.
١٠- سنن البيهقي.
١١- سنن البزار
١٢- سنن الترمذي.
١٣- سنن النسائي.
١٤- السياق وتوجيه دلالة النص، د. عيد بلبع، بلنسية، ط١، ١٤٢٩ه .
١٥- شرح البخاري، ابن بطال، تحقيق أبو عثيم ناصر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ
١٦- شرح السنة، الإمام البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ١٤٠٣هـ.
١٧- صحيح ابن حبّان.
١٨- صحيح البخاري.
١٩- صحيح مسلم.

٢٠- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ونقده، أبوعلي الحسن بن رشيق، تحقيق :محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الطلائع، القاهره، ط١، ٢٠٠٦م.
٢١- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت.
٢٢- لسان العرب، ابن منظور.
٢٣- مسند أحمد.
٢٤- مسند الحميدي.
٢٥- وحي القلم، مصطفىٰ صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت .

فهرس الموضوعات

رقم التسلسل	الموضوع	رقم الصفحة
١	المقدمة	٥٦٣
٢	المبحث الأول : سياق البشارة	٥٦٦
٣	البشارة الأولى	٥٦٦
٤	البشارة الثانية	٥٦٩
٥	البشارة الثالثة	٥٧٢
٦	المبحث الثاني: سياق المداعبة والمرح	٥٧٥
٧	السياق الأول	٥٧٥
٨	السياق الثانى	٥٧٨
٩	السياق الثالث	٥٧٩
١٠	المبحث الثالث : سياق الغيرة	٥٨٢
١١	السياق الأول	٥٨٣
١٢	السياق الثانى	٥٨٥
١٤	المبحث الرابع: سياق الإرشاد	٥٩٠
١٥	السياق الأول	٥٩٠
١٦	السياق الثانى	٥٩٢
١٧	السياق الثالث	٥٩٥
١٨	الخاتمة	٥٩٦
١٩	المراجع	٦٠٢
٢٠	فهرس الموضوعات	٦٠٤